شاهد الإثبات

بقلم: ف. ج. سميت

لم أكن من التحقوا بالجامعة أو كانوا من طلابها، ومع هذا فقد كان على ان العب دور الطالب الجامعي.. وكان هذا أمر ضرورية لنجاحي في عملي.. وهو زيارة البيوت لبيع السلع التي كنت وكيلا متجولا لها..

ارتديت ملابس طلاب الجامعة، واستحصلت على بطاقة جامعية، وعلقت شارة الجامعة على زر سترتي.. ومضيت أتكلف مظاهر الطلاب الجامعيين أياً سرت ومضيت، وكتابي خلف إبطي، ودفتري في جيبي..

وكان الطريق إلى هذا سهلا هينا ما تكلفته وأتقنته ولعبت دوري، ولا تسل عندئذ عن السهولة التي تتساقط فيها الفتيات في حبائلك، ويركضن إليك، ولا عن الدهشة التي تملأك حين تشاهدهن يسألنك اللعب معهن، فلا يصدنك عن هذا إلا ان أكثرهن كن أما طويلات أو قصيرات.. وإما سمينات أو رقيقات، فان لم تكن واحدة منهن في مثل هذه الصفات الأربع كانت قبيحة الوجه لا تطاق..

وكانت "كارول برادفورد".. تختلف بالتأكيد عنهن جميعاً..

كانت تشبه اللعبة الكبيرة جمالا ونعومة وليونة وطراوة وإثارة، وكانت باعتقادي من أجمل من وقعت عليهن عيناي من النساء.

وكان المنزل الذي تسكنه من الأجر والحديد والخشب.. ولا يقل ثمنه عن الأربعين ألف دولار، مع فسحة الأرض الواسعة حوله... وكان من عادتي، حين يفتح الباب أمامي، ان اجمع أعصابي، وابرز شخصيتي، وابدي ابتسامتي، ثم أمضي إلى الداخل، وابدأ حديثي دون ان أحاول إضاعة الوقت..

وأما مع كارول فقد كان الأمر يختلف بعض الاختلاف، فقد كنت مثلا في اللحظات الأولى لرؤيتها أقف جامدة أمامها انظر إليها... فاغرة فهمي، بادي الدهشة..

ولم أكن الوحيد الذي يقف أمامها مثل هذا الموقف، فقد كان الكثيرون غيري يعر وهم ما يعروني، ويساورهم ما يساورني من قلق، فقد كانت نظراتها الفاحصة الحائرة تجعلني اسأل نفسي فيا إذا لم تكن تظنني شخص آخر... تعرفه قبلا..

أخبرتها كيف إني اشق طريقي في الجامعة، وتحدثت عن هذه المباراة الكبيرة، ذات الجائزة المالية، وكيف إني أحاول جهدي لعلي احصل على اكبر عدد من النقط تؤهلني للنجاح والظفر بالمسابقة..

ويبدو أنها لم تكن تلقي بالألما أقوله، فلما حاولت الدخول

إلى المنزل هتفت تقول:

– إني متأسفة، ولكني كثيرة المشاغل اليوم.. وعندي بعض الزائرين.. فان تفضلت بزيارتي غدا، فسوف أكون مستعدة للاستماع إلى حديثك..

قلت: سوف أكون في مكان آخر غدا... – ولكن باستطاعتك أن تعود إلى هنا

إذا أردت.. وسأكون في المنزل وحدي غدا..

– سوف أحاول..

فقالت: أني واثقة انك تستطيع أن تفعل.. إذا قررت واعتزمت.. وسيكون عندنا الوقت الكافي لنتكلم ولأعطيك كل اهتمامي.. وليكن الاجتماع في الساعة الثانية.. فهل يوافقك هذا ؟

– فليكن..

– جرب أن لا تنس..

– هل تمزحين ؟

فلما فتحت الباب في اليوم التالي، وشاهدت وجهي، أدخلتني إلى الرواق، فسحبت دفتري وقلمي – بحكم العادة وكنت واثقة ان عندها ما تقوله ويهمها أمره أكثر من اهتمامها بشراء بعض أغراض مني لم تكن بحاجة إليها..

مضت أقول: لقد تحدثت إليك البارحة..

فقطعتني تقول:

– لقد سمعت كل ما قلته البارحة، فلا لزوم لترديده.. قلت: إذا كان الأمر كذلك.. فلم يبق أمامك إلا ان توقعي تحت هذه الورقة..

– لا تكون مغفلا.. فلو أني حاولت شراء شيء من كل من يطرق بابي، فان زوجي سيتعرض للإفلاس حتما..

قلت متظاهراً بالبساطة:

– إذن لماذا طلبت مني العودة لمقابلتك..؟

– لأني أريد التحدث إليك..

– بشأن ماذا ؟

– بخصوص أمر قد يفيدك..

– كلي آذان صاغية..

ولم أتعجب طبعا لما قالت بعد لحظات:

– ألا ترى من الأفضل ان نذهب إلى غرفة الجلوس، وأنا واثقة انك سوف تجدها أكثر راحة من هنا..

تقدمتني إلى غرفة الجلوس وجلست في وسط مقعد كبير.. ووضعت رجلا فوق رجل، بحيث كان بإمكاني ان أشاهد دقة ساقيها وجمالها، ثم سألتني الجلوس على مقعد في مواجهتها، فجلست، فسألتني عن اسمي:

فقلت: أني ادعى "كن"..

فقالت: وأنا "كارول".. ولا بد انك تسأل نفسك عن السبب في هذه الدعوة، وسوف تعرف هذا السبب حالا.. هل تريد ان تحصل على بعض المال ؟

– الأمر يتوقف..

– ليس هناك شيء في هذه العملية.. لا شروط ولا قيود ولا من يحزنون.. كل ما في الأمر أني أريد منك خدمة.. وسأدفع لك ثمن هذه الخدمة..

– ما هي هذه الخدمة ؟

– أريد ان نسهر معين خارج المنزل وسأدفع لك مقابل ذلك مائة دولار مع المصارفات..

وحدقت في وجهها لا تأكد أنها لم تكن من المازحين وسألتها:

– إلى أين تريدين ان نذهب..؟

– إلى احد النوادي الليلية..

– ولماذا تريدين الذهاب إلى ناد ليلي..؟

– لماذا يذهب الناس عادة إلى النوادي الليلية، ليمضوا سهرة ممتعة لطيفة.. وأؤكد لك أني من الراقصات الماهرات، واني لطيفة الحديث وستكون مسرورة من سهرتك معي..

– لماذا لا تطلبين من زوجك أن يفعل ذلك..؟

– هذه قصة طويلة ليس الوقت الآن مناسباً للبحث فيها...

– ومتي تريدين أن يكون موعد هذه السهرة ؟

– مساء الجمعة.. وعليك أن تأتي لأخذي من البيت في الساعة

الثامنة..

قلت: وماذا سيكون موقف زوجك من هذه القضية ؟

– لا عليك منه.. فسيكون غائباً عن المدينة، ولن يعود قبل يوم السبت..

وأخذت أفكر في السبب الذي يدعوها للسهر معي..

ولحظت ما يدور في خلدي.. فهتفت تقول:

– ان الأمر بسيط جدا.. كل ما في الأمر أني أريد تمضية سهرة متعة ارقص فيها واشرب، ولا يتعدى ما أريده منك العناية بي في أثناء السهرة.. أتجد هذا أمراً صعباً ؟

– أن الذي يحيرني.. أن امرأة مثلك...

وقطعت كلامي لما شاهدتها تتحرك من مكانها، وتتقدم نحو منضدة في وسط الغرفة أخرجت من احد أدراجها شيئا، عرفت لما استدارت نحوي انه صورة، قدمتها إلي وهي تقول:

– هذه صورة زوجي..

– أخذت أحدق بالصورة، وقد استولت على الحيرة..

ذلك أن الصورة كانت تشبهني جدا، حتى لظننت في أول الأمر أنها صورتي.. وان كان صاحب الصورة يبدو اكبر مني سناً..

وفي طرف الصورة قرأت الكلمة الآتية:

"إلى كارول.. مع كل حبي.. «روسل »

لما رددت الصورة لها، نظرت إليها مليا، وقد بدت على وجهها موجة من الحزن والأسى...

ثم قالت:

– لقد صورت هذه الصورة منذ سنة تقريباً.. ولكنه تبدل الآن...

– هل تغير شكله ؟

– لا.. انه يبدو الآن كما كان قبلاً.. ولكنه تبدل من طرق أخرى، لقد أصبح شخصا غير الشخص الأول، لقد كنا سعيدين جدا عندما أخذت له هذه الصورة، وأما الآن..

وهزت رأسها، ومضت تقول:

– فقد انتهى كل شيء بالنسبة له.. أتدرك معنى هيامك بشخص ثم تفطن إلى أن هذا الشخص لا يفرض لك وجودة...

قلت: أني أدرك ما تقولينه.. ولكن ما علاقتي انا بهذا ؟

وأخذت أفكر كيف أن شخصا في عقله السليم لا يعرف بوجودها أو لا يفطن لها..

قالت: حين رأيتك البارحة، حدث شيء عجيب، أري من الصعب على وصفه.. وكأني أرى " روسل " من جديد، أو اجتمع إليه بعد طول غياب.. وهو في الحالة التي كنا فيها قبلا..

وأخذت تنظر إلى الأرض الفضاء عبر النافذة.. ثم قالت:

– هل شعرت يوما بحاجتك للعودة إلى الماضي، أو للتعلق بشيء كان في الماضي ؟ أو بساعات من الأوقات السعيدة التي مضت، والتي تؤمن أنها لن تعود بعد اليوم.. ؟ هذه هي حالتي الآن.. أريد ان أتظاهر ولو ليلة واحدة، بان هذا قد يكون أو هو كائن..

والتفتت إلي تقول:

– لا بد انك تظنني مجنونة..

– هل قلت أنا ذلك ؟

– لا.. لم تقل هذا طبعاً.. ولكن هذا هو ما تفكر به..

وكنت بالتأكيد أتصور ان ما سمعته منها اقرب إلى الجنون وخطرات الأحلام، منه إلى شيء آخر.. ولكن المفاجآت والأهوال التي تعرضت لها جعلتني أرى فما سمعته شيئا عادية، كما ان المرأة التي كانت أمامي كانت بالتأكيد امرأة فاتنة جميلة.... لم أشاهد مثلها قبل اليوم..

قلت أخيرا:

– أنها على كل حال أموالك، ولك أن تصرفينها كم تشائين...

– إذن فأنت توافق على طلبي..

– ولماذا لا افعل..

وأمسكت بساعدها، وضمنها إلي، فتركتني أقبلها، قبل أن تدفعني

وهي تقول:

– هذا يكفي يا "كن".. وسيختلف الحال يوم الجمعة.. والأفضل ان تذهب الآن.. فان زوجي قد يأتي بين لحظة وأخرى.. فليس من يعرف متى يصل ومتى يغادر البيت في المدة الأخيرة...

– وإذا عاد يوم الجمعة فجأة..؟

– لا.. انه لن يعود.. فهو سيسافر حتما، وقد ابتاع تذكرة السفر، والى الملتقى..

لما وصلت إلى البيت في مساء يوم الجمعة وضعت يدها على ساعدي، و قبلتني في وجهي قبيلة خفيفة.. ثم تراجعت خطوات لتريني فستان السهرة، وكان جميلا رائعا، وقد بدت فيه كأنها لعبة من لعب الآلهة..

قالت: لقد وصلت في الموعد.. كيف تجد فستاني ؟

– انه من غير هذه الدنيا..

– لقد اشتريته لحفلة الليلة، وقد أردت ان أبدو جميلة في نظرك..

– لقد أحسنت في اختياره..

– شكرا.. ولكنك قد تبدل رأيك حين تشاهد ورقة الحساب..

– ورقة الحساب..

– طبعاً فقد جعلته على حسابك.. وستجد انه غال جداً.. والآن هيا بنا..

وغادرنا المنزل.. وأعطتني مفتاح السيارة الواقفة أمام المنزل ففتحت لها بابها وسألتها:

إلى ان سوف نذهب الليلة ؟

فقالت: ما هذا الكلام يا "روسل".. لا تقل لي انك انسدت كل شيء عن هذه السهرة، فقد كنت انت الذي اقترحت آن نقضي السهرة في "الشاتو"..

أخذت أراقبها من طرف عيني..

كانت تجلس هادئة في مكانها، ممسكة محفظتها في يدها..

ولما شاهدتني انظر إليها، وضعت يدها خلف عنقي، واقتربت مني بحيث لامس كتفي كتفها..

وقالت: هل تعرف يا روسل.. انه سيمر على زواجنا سنة واحدة في يوم الاثنين المقبل.. فكر في هذا.. سنة واحدة تماما..

قلت قلقاً:

– ان الوقت يمضي بسرعة أليس كذلك ؟

– أهذا كل ما عندك..

وكنت قد أدركت أنها تعيش في شبه حلم من الأحلام.. وقد تكلفت جهدها لتحياه و تعيشه.. وكان هذا أغرب حادث مر بي في حياتي.. ولم أكن قد سمعت بمثله أبدا، فقد تناست حاضرها.. وأخذت تعيش في ماضيها.. وأصبحت أنا قسمة من الماضي في نظرها، ولم أعد عندها " كن

باركر".. وإنما "روسل برادفورد" زوجها..

وأخذت أفكر في "برادفورد" هذا، وما الذي فعله معها، ليبد لها من حال إلى حال...

لما وصلنا إلى "الشاتو" أوقفت السيارة إلى جانب البناء، وقبل أن ندخل إلى المكان، أخرجت بعض النقود من محفظتها وقدمتها لي وهي تقول:

– خذ هذه الستين دولاراً... فأنت تنسي نفسك في بعض الأحيان يا "روسل".. خصوصاً حين يتعلق الأمر بالمال، وأراهن على انك غادرت المنزل وليس في جيبك سنت واحد..

وقبل أن ندخل إلى "الشاتو" ذكرتني بان رئيس الخدم يدعى "ماكس".. وان من الحكمة إعطاءه خمسة دولارات .

وكان "الشاتو" نادياً ليلياً راقياً، تعزف فيه الأوركسترا، ويصار إلى الرقص في صالونه الواسع، ولما شاهدنا رئيس الخدم، ابتسم وهز رأسه، كأنما نحن من الزبائن الأثرياء.. المعروفين عنده.. وهتف يقول:

– مساء الخير.. يا مستر برادفور.. مساء الخير يا مسز برادفورد..

قلت: هالو ماكس.. أرجو ان تكون قد اخترت طاولة لطيفة لنا..

وأجابني باحترام:

– نعم بالتأكيد يا مستر برادفورد..

وكذلك اهتم بنا الغارسون الذي كان سيحمل إلينا ما نشر به ونأكله،

فتأكد لي ان هذا أيضا ينتظر منا بقشيشا محترماً..

والواقع أننا لم نكن ننتهي من طعامنا، حتى انسجمت في الدور الذي أرادتني على تمثيله، فصرت أتكلم واعمل كما تصورت أن " برادفورد " سوف يعمل لو كان في مكاني، وقد سرني ان تخيلت نفسي رجلا عظم، ترافقني زوجة من أجمل النساء..

شربنا ورقصنا.. وامسك كل واحد بيد الآخر فوق الطاولة..

وفعلنا كل ما يفعله زوجان جديدان في مثل هذه الحالات.. وفي هذا المكان العام..

ولحظنا أن رجلاً متقدماً في السن كان يجلس قريبا منا مع زوجته قد سلم علينا، وفي أثناء الرقص فعل مثل ذلك زوجان آخران..

وتطلعا معنا قليلاً.. وناداني الرجل باسمي.. روسل.. واخبرني أني أبدو في أحسن حال.. وأدركت أنها سعيدة بالجو الذي حولها، وأنها كانت تتمتع بهذه الساعات كا افعل أنا..

وكان الشيء الذي يقض مضجعي أن تعود لنفسها، وتدرك أني لست زوجها، وإنما أنا غريب يشبهه.. وعندئذ سوف يصبح موقفي حرجاً..

غادرنا النادي بعد الساعة الواحدة، فلم ترفع يدها عن عنقي طوال الطريق..

وأخيراً قالت:

– روسل..

– نعم.. يا كارول..

– لقد كانت سهرة عظيمة..

– نعم هو ما تقولين .

– أرجو ان تكون سهراتنا بعد اليوم مثلها..

– هذا ما ارجوه أنا أيضا..

ونظرت إلي وقالت:

– انت ترجو هذا أيضا..

قلت: اعني.. يا للشيطان..

ولما دخلنا إلى المنزل أخذتني إلى غرفة نومها في الطابق الثاني، حيث أخذت تخلع ملابسها أمامي، فيما جلست أنا على حافة السرير.. فلما وصلت إلى وسطها أطفأت النور، ومضت تخلع الباقي..

وكنت أتوقع ما سوف يحصل بالتأكيد.. ومهما يكن الأمر فقد كنت زوجها روسل برادفورد..

أفاقت على صوت المنبه في الساعة الخامسة صباحا ثم هزتني وهي تظن أني لا أزال نائماً..

وصاحت تقول:

– الساعة الخامسة.. وعليك أن تذهب حالاً..

ونظرت إلى وجهها في هذه اللحظة..

فوجدت أن الحلم قد اختفى من عينيها..

واني لم اعد زوجها، وإنما "كن باركر" الرجل الغريب..

وقبل أن أغادر المنزل أعطتني المائة دولار التي وعدتني بها القضاء السهرة معها، ثم نظرت إلى وجهي وقالت:

– لا تحاول أن تراني مرة ثانية، يا كن.. اقسم لي انك لن تفعل..

وكانت الشوارع في هذه الساعة لا تزال خالية من الناس.. فما كانت الشمس تحاول الظهور رويدا رويدا من خلال السحب والجبال البعيدة..

ولم أجد في الطريق سيارة تقلني إلى الفندق، فقطعت الطريق سائرا على قدمي..

ولما وصلت إلى غرفتي وجدت رفيقي "شارلي بكين" لا يزال نائماً وهو يشخر.. فألقيت نفسي بالقرب منه.. وأغمضت عيني..

انتهينا من عملنا، وعرضنا بضاعتنا على كل منزل في المدينة بعد ستة أسابيع من هذا التاريخ.. وأخذنا نستعد لمغادرة المدينة في اليوم التالي صباحا إلى "هوستن"..

وكان شارلي قد وضع قدميه على أطراف النافذة يقرأ صحف المساء، فيما تمددت أنا على الفراش..

صاح فجأة وهو يلقي بالجريدة إلي:

– اقرأ هذا الخبر.. ان الرجل الذي في الصورة، يشبهك تماما حتى كأنك إياه..

وعرفت في الرسم صورة " روسل برادفورد " وزوجته كارول الجميلة، وقد علقت الجريدة تحت رسميهما تقول أنها في طريقهما لرحلة حول العالم.. وسيغيبان عن المدينة مدة سنة واحدة..

وقال شارلي:

– ما رأيك لو كنت برادفورد، ولك زوجة كهذه، وفي سبيلك لرحلة حول العالم..؟

. هل تعرف كم تكلف هذه الرحلة ؟ – طبعا تكلف مبلغا ضخما..

– ولكن برادفورد ملك أضعاف أضعاف هذا المبلغ.. فهو ممتلئ بالمال..

– كيف تعرف كل هذه المعلومات عنه ؟

– لأني أقرأ الصحف دائما، وأتذكر ما أقرأه ولا أنساه.. فقد ورث برادفورد هذا مبلغا ضخمة من المال من عم أعزب له، قتل منذ مدة..

قلت بدهشة: قتل..

– نعم فقد أطلق عليه احدهم النار في منزله منذ ستة أسابيع، و آخر ما قرأته أن البوليس لا يزال يبحث عن الشخص الذي قتله ؟..

ورفع قدميه عن النافذة وهو يقول:

– ولو أني كنت من البوليس، لكان "برادفورد " هذا أول من اتهمه بالجريمة..

انه استنتاج في مكانه.. – طبعا.. ولو كنت من البوليس لقبضت عليه واستجوبته وأجبرته على الاعتراف..

وضعت يدي خلف رأسي وأغمضت عيني..

وتصورتها أمامي في فستانها الجميل الرائع ليلة السهرة..

ثم قلت:

– الم تتصور يا شارل... آن "برادفورد" هذا، قد يكون ذكية جدة، وقد يكون قد رتب أمره بحيث لا يستطيع البوليس اتهامه، كأن يثبت لهم فما لو سألوه، بأنه كان في ساعة الجريمة، أو ليلة الجريمة، في مكان معين مع أصدقائه وزوجته وبعض معارفه.. وهو برهان لا يمكن نقضه كما تعلم..